الفصل الأول

جواسيس الماضي

يشغل التجسس اليوم العالم بأسره ، إذ يستغرق وقتاً طويلاً ، ويستلزم الملايين من العملاء والبلايين من الأموال ، وتستخدم إداراته أحدث الوسائل التقنية الفائقة التعقيد . لكنّ أساليب الجاسوسية لم تكن على هذا النحو فيما مضى . . .

التجسس : شر لابد منه

وُجِدَ عملاء الجاسوسية في العالم عندما تعلم الإنسان لأول مرَّة أن يشن الحروب . ففي القرن الرابع قبل الميلاد ، كتب الخبير العسكري الصيني «صن تزو» : «لن يعاني من الهزيمة مطلقاً أولئك الذين يعرفون عدوهم كمعرفتهم لأنفسهم» . وأضاف بأنَّ المعرفة المسبقة بالأمور تمكن القادة والسلطات القيادية من «توجيه الضربة الصحيحة وبلوغ أهداف لا يستطيع الإنسان العادي الوصول إليها» . وعلى مدى قرون من الزمن ، أثبت الضباط العظماء صِدْق كلماته .

لم يكن الفضل الرئيسي في نجاح الغزو القرطاجي - الذي قادة هانيبعل لاحتلال إيطاليا عن طريق جبال الألب في عام ٢١٨ قبل الميلاد - يعود للفيلة التي خلّدتها كتب التاريخ ، إذ أنّ دور هذه الفيلة يُعتبر ثانويّاً إذا ما قورن بالسنوات التي انقضت في إنشاء شبكة من المخبرين انتشرت بين قبائل بلاد الغال في وادي البو . وقام هؤلاء المخبرين بإبلاغه عن قوّات عدوه ؛ وتعاطف السكان الخاضعين للحكم الروماني ، ومخطط الأرض وتأثير المناخ عليها ، وعن أماكن إيجاد الطعام والماء العذب .

وعندما غزت جماعات المغول بقيادة جنكيزخان أوروبا في القرن الثالث عشر ، كان طريقهم قد أعدَّ مسبقاً من قبل جواسيس محليين جندهم جنكيز خان ، وتظاهروا بأنهم بائعين وتجّار . ومكَّنت طريقة إرسال البريد بالجياد المعدّة لـلانطلاق في محطات تبعد كل واحدة منها عن الأخرى ٢٥ ميلاً - من إيصال البريد والمعلومات إلى جنكيز خان في ٢٤ ساعة بدلاً من ١٠ أيام تستغرقها الرحلة في العادة . بعد عدة قرون ، كانت هذه الطريقة وراء فكرة البريد السريع عبر براري الغرب الأمريكي .

في الأربعينات من القرن السابع عشر ، كان تقدير أوليفر كرومويل لأهمية الإستخبارات - بعكس الملكيين الذين لم يولوها عنايتهم - أحد أهم الأسباب التي أدت إلى إطاحته بالملك تشارلز الثاني عن عرشه في الحرب الأهلية البريطانية . وكان السير صموئيل لوك هو مُستطلع الأنباء الرئيسي لديه ، وقيل بأنّه كان مثابراً على استطلاع أدق التفاصيل الخاصّة بالعدو عن كونهم «يأكلون ، ينامون ، لا يشربون ، لا يهمسون ، كما كان باستطاعته تقديم كميّة لا بأس بها من المعلومات

عن أكثر الأحداث سريّة في حياتهم» .

بعد أربعين عاماً ، قال جون تشرتشل ـ أوّل دوق لمارلبورو ـ لناقدي سياسته في الإنفاق الهائل على الجاسوسية : «لا يمكن إدارة زمام أيّ حرب بنجاح دون جهاز استخبارات جيد يستطيع نقل الأنباء في وقت مبكر من حدوثها ، ولا يمكن الحصول على أنباء كهذه إلا بنفقة باهظة» . ولم تنس منطقة مارلبورو مطلقاً الفشل الذريع في معركة سيدجمور التي وقعت عام ١٦٨٥ ، عندما نقل أحد الجواسيس معلومات مفصلة لدوق مونموث المتمرّد ؛ عن الأسلحة والقوات التي كانت متواجدة لدى الجيش الملكي المعَسْكِر في الجوار من قواته ، لكنّه نَسي أن يذكر له خندقاً مملوءً بالمياه . ولما شنّت كتيبة المشاة التابعة لمونموث هجوماً ليلياً مفاجئاً ، أدى التشويش والبلبلة الحاصلين بسبب وقوع الجنود في الخندق المائي إلى إعطاء قوات الملكيين وقتاً كافياً للاستيقاظ ؛ ومن ثم إيقاع هزيمة منكرة بالمتمردين . وقد تمَّ إعدام مونموث بعد تسعة أيام من تلك الواقعة .

لكنّ الضباط الذين وضعوا درس التاريخ هذا نُصب أعينهم كانوا استثناءً بدلاً من أن يكونوا القاعدة ! فعلى الرغم من وجود أناس جاهزين دوماً لإعطاء المعلومات مقابل المال ، لم يأخذ عملاؤهم تلك المعلومات بعين الإعتبار في غالبية الأحيان ، مفضلين الإعتماد على تكوين أفكار مسبقة عن الأحداث . وردد القادة والسلطات القيادية ، على مدى قرون عديدة ، كلمات اللورد راغلان المذكورة في التاريخ البريطاني الرسمي لكارثة حرب الكريميا ؛ حيث قال : «إنَّ جمع المعلومات بوسائل سرية يُعتبر عملاً كريهاً يثير اشمئزاز مشاعر الإنسان المتحضّر» .

لم ينفك عمل التجسس في بريطانيا عن كونه عملاً خاصاً كريهاً : منذ أصبح مجالاً خَطِراً . وكانت الملكة إليزابيث الأولى محظوظة إذ عثرت على السير فرانسيس ولسينغهام ـ الذي اعتُبر فيما بعد كأوّل الجواسيس العظماء في العالم . وفي الواقع فإنَّ ولسينغهام أعلن إفلاسه بعد فترة ، بعدما أنفق مبالغ طائلة على حماية الملكة إليزابيث الأولى البروتستانية من دسائس الكاثوليكيين التي أحيكت ضدّها ، ومن خطر التهديدات الإسبانيّة . واستأثر السير فرانسيس درايك بمفخرة إيقاع الهزيمة بالأسطول الحربي الذي وجَّهته اسبانيا لغزو إنكلترا في عام ١٥٨٨ ، والتي كان ولسينغهام وجواسيسه وراء إمكانية تحقيق النصر في تلك المعركة .

في بدايات ظهور الجاسوسية في العالم ، كان وولسينغهام يعتبر شخصاً نادر الوجود ، إذ أنّه استخدم المعلومات ـ التي كان يحصل عليها ، لأغراضٍ وطنية لا لغايات شخصيّة . وعندما لم تعد الملكة تدفع له الأموال ، دفع لشبكته من جيبه الخاصّ ، مُصرِّحاً: «ليست المعرفة باهظة الثمن على الإطلاق» . وكان عديم الشفقة في القضيّة التي يناضل من أجلها ، فعندما اكتشف أنّ الكاتب المسرحي كريستوفر مارلو ـ الذي تمّ تجنيده في جامعة كامبريدج ليقوم بتسليل حلقة مدبرة للمكائد في الرايم ـ كان يحيك دسائساً من صنعه ضد العرش ، أرسل وولسينغهام ثلاثة من رجاله لاغتيال كريستوفر مارلو في حانة ديتفورد .

اعتمدت معظم الأمم ، في أعمال الإستخبارت ، على السفراء الذين كانوا يُرسلون إلى البلاطات الملكية الأجنبية . من ناحية أخرى ، وضع وولسينغهام ثقته بطلاب شباب ثوريين تخرجوا من الجامعة حديثاً . وكان مقتنعاً بأنّ ملكته لن تكون بأمان مطلقاً ؛ إذا بقيت قريبتها الصغرى ماري رئيسة صوريّة للعصيان المسلح الكاثوليكي . ولما عرض شاب كاثوليكي يدعى جيلبرت غيفورد خدماته على وولسينغهام ، أخرجه من السجن الذي كان يُمضي فيه عقوبة احتيال ، ووضعه ضمن أعضاء جماعتها . واستطاع جيلبرت قراءة رسائلها السريّة ـ عندما كان مختبئاً بين براميل وزجاجات الخمر ـ وتمكّن أيضاً من الحصول على الرمز البابوي ؛ الذي مكّن وولسينغهام من اعتراض جميع المراسلات القادمة من الفاتيكان وقراءتها . وقد كشفت له هذه الرسائل النقاب عن مؤامرة أنطون باينغتون للإطاحة بالملكة إليزابيث ووضع ماري على عرش بريطانيا بدلاً منها . استطاع وولسينغهام في نهاية الأمر من تقديم ماري للمحاكمة ، وتأكد من تنفيذ حكم الإعدام بحقّها .

كان التعامل مع التهديدات الإسبانية صعباً للغاية . ومن هنا ظهرت فائدة عملاء وولسينغهام الذين كانوا متواجدين في تلك الفترة . فتظاهر ريتشارد جيبس بأنّه أحد المؤيدين لتولي ماري السلطة في إنكلترا ، وتنقّل عبر الأراضي الإسبانية ، وقدَّم تقاريراً عن ما لا يقلّ عن ١٥٠ سفينة شراعيّة ضخمة كانت تجهز في موانىء مختلفة للغزو . كما لاحق أنطون ستادن ـ الذي كان يعمل في فلورنسا ـ السفير التوسكاني (نسبة إلى جنوب إيطاليا) جيوفاني فيغلياتزي للحصول منه على معلومات ذات فائدة . واكتشف مصادفةً رجلاً كان أخاه يعمل خادماً لدى ماركيز

سانتا كروز ـ القائد الأعلى للقوات البحريّة الإسبانية ـ وتمكن عن طريقه من الحصول على نسخ لتقرير تمّ تقديمه للملك فيليب تضمّن تفصيلاً لأعداد السفن المتوفرة لدى الأسطول الإسباني وأسلحتها ومخزوناتها ؛ وحتى عدد البحارة والجنود والعبيد المتواجدين على ظهر كل سفينة . وحذّر أيضاً من أنّ الأسطول سيُبحر في عام ١٥٨٧ .

تصرَّف وولسينغهام بسرعة . ففي شهر نيسان ، أرسل السير فرانسيس درايك سفناً حربيَّة إلى ميناء كاديز في مهمة اشتهرت باسم «إحراق لحية ملك إسبانيا» . وعندما حاول الملك فيليب أن يحصل على قروض من تجّار جزيرة جينوه لإصلاح بعض الأضرار التي لحقت بسفن الأسطول ، كان وولسينغهام قد سبقه ومارس ضغوطه على الذين سيقومون بتقديم الديون المالية للملك فيليب ـ واستطاع إقناعهم بتأخير إبحار الأسطول مدّة أطول . ثمّ قام ، بمساعدة من المُنجّم جون دي ، بشنّ حملة تشويه حقائق في أوروبا بأسرها . وتنبّأ المنجمون بطقس سيء للغاية في عام ١٥٨٨ ، فبالغ جون دي بالتعتيم على حقيقة هذا التنبوء ؛ وأخبر المراسلين ، الذين تأكد من أنهم سيقومون بإيصال المعلومات إلى إسبانيا ـ بأنّ عواصف عنيفة ودمار امبراطورية عظيمة سيحدثان خلال فترة إبحار الأسطول الاسباني . وأدّت هذه الأنباء إلى هبوط المعنويّات فجأة في مدريد . وعندما أشرق فجر يوم الإبحار ، تابع عملاء وولسينغهام خطّ سير الأسطول على طول الطريق . وأعطى نشاطهم في جمع المعلومات إنكلترا وقتاً كافياً للإستعداد لصدّ محاولة الهجوم . وعندما وصلت السفن الشراعيّة إلى انكلترا أخيراً ، كانت العواصف قد دمرت جزءٌ من السفن ، وأنزل الأسطول البريطاني هزيمة ساحقة بما تبقى من الأسطول الإسباني ، ولم تعد إسبانيا تُشكّل خطراً على غيرها من الدول بعد ذلك . مات وولسينغهام ـ الرجل الذي خطَّط بعبقريَّته لهذا النصر ـ فقيراً عام ١٦٥٠ . وكتب عميل اسباني من لندن إلى الملك فيليب : «هنالك حزن كبير» . فقال الملك بكلمات تحمل بين طيّاتها معاني خفيّة : «هناك ، نعم ، لكنّها أخبار جيدة هنا» .

وانقضى أكثر من قرن من الزمن بعد ذلك قبل أن تتمكن بريطانيا من إنشاء نظام جاسوسية جديد يفي بالغرض . لما وجد الملك جيمس الأول ، الملقّب بـ«أكثر الحمقى حكمةً» في البلاد المسيحيّة ، بأنَّ البلاد لا تواجه خطراً مباشراً على

الحدود ، قام بتفريق قوات الإستخبارات التي كانت موجودة لديه عندما كلَّفها بمطاردات غريبة وراء ساحرات مزعومات . ودفع مؤيدوا عائلة ستيورات (التي حكمت اسكتلندا وبريطانيا فيما بعد) بسخاء للعمل على إهمال إيصال المعلومات . وقرَّر كرومويل الذي استفاد من تلك الحقيقة فيما بعد ـ أنْ لا يقع في نفس الخطأ ، فتمّ تعيين جون ثورلو ، المحامي المعتدل ، كرئيس لقوى الأمن بدخل شهري يعادل ٧٠٠٠٠ جنيه ـ أي أكثر بعشرين ضعفاً من الراتب الذي تقاضاه وولسينغهام . وقام ثورلو بدوره على أكمل وجه ، فأنشأ شبكة جاسوسيّة في داخل البلاد وخارجها ؛ حصلت فيما بعد على ثناء السفير الفينيسي (نسبة إلى مدينة البندقيّة) ساغر يدو إذ قال : «لا توجد حكومة على وجه الأرض أقلّ إفشاء لأسرار شؤونها الداخليّة من بريطانيا ، ولا دِقَّة في إيصال المعلومات أكثر من دِقَّة العاملين في استخباراتها» .

قام ثورلو ببثّ جواسيسه ضمن معسكرات الملكيين المقيمين في الخارج ، وأنفق عليهم بسخاء لأنّ العملاء الجيدين «لا يمكن كسبهم إلا بالمال ، لأنّهم يقومون بأي شيء يُطلب منهم مقابل حصولهم على الأموال» . وعلى الرغم من أن الملك المُبْعد ، تشارلز الثاني ، عرض لقب الفروسية ومبلغ ٥٠٠٠ جنيه للشخص الذي يستطيع تصفية كرومويل ، فإن كرومويل مات في سريره ميتة طبيعيّة ، لأن ثورلو أخذ علماً بكلّ مؤامرات الملكيين مسبقاً .

كان لدى ثورلو أيضاً عملاء في كلّ بلاط ملكي في أوروبا . واستطاع بفضل ذلك أن يعرف خلال أيام عمّا حدث عندما اجتمع البرلمان الفرنسي بسرّيَّة وراء الأبواب المغلقة ، إذ وضع اللاجئون اليهود ، الهاربون من الإضطهاد في أوروبا ، شبكة مراسلاتهم المترابطة تحت تصرّفه . ولاحظ السفير ساغريدو أنّ رجال الدين اليسوعيين كانوا يمنحون سُلطةً في روما ، و«كان لديهم في فرنسا وإسبانيا وألمانيا والبندقية ـ أشخاصاً بارزين يُرسلون لهم من وقت لآخر الأنباء . وحيثُ أنّ المراقبة المفروضة عليهم كانت ضعيفة ، فقد اندسوا في كُلّ مكان» .

أمسك ثورلو بزمام الشؤون الداخلية في البلاد بتقسيمها إلى (١١) منطقة ، ووضع في كل منها قائداً من ضباط الجيش البارزين ، وكانت قوّات الشرطة التي تقوم بحماية كلّ منطقة ، جزء من القوات المسلّحة النظامية . وقد تم في تلك

الفترة اعتراض المراسلات وقراءتها دون خجل . كما تمَّ التشجيع على التجسس على الجيران وتقديم مكافآت مادية مقابل المعلومات . فأسيء بذلك استعمال هذه «الرعاية الحمائية» ، حيث أنّ البرلمانيين المتدينين قاموا بإغلاق الحانات وأخذوا بثأرهم من الملكيين المشكوك بموالاتهم ـ لكن اعتُبر نجاحهم في ممارسة الجاسوسية لا مثيل له في التاريخ البريطاني . ولسوء حظّ ثورلو فإنَّ موت كرومويل في عام ١٦٥٨ كان إنذاراً بموته هو نفسه . وقام العديد من البرلمانيين بتأييد الملِك الذي أصبحت إعادته إلى عرشه أكثر توقُّعاً . ولدى عودة عائلة ستيوارت إلى سدَّة الحكم في عام ١٦٦٠ ، لم يعد هناك وجود لشبكة الجاسوسية على النطاق الوطني أو النطاق الدولي ، حتى وقعت الحرب بين أعوام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . لكنّ وولسينغهام وثورلو حكما الأمم التي أتت بعد تلك الحقبة من الزمن . .

لم يهتم الملك تشارلز الثاني كثيراً بدفع الإستخبارات لجمع المعلومات بعد عودته إلى العرش البريطاني عام ١٦٦٠ . فعانى من تضليلات عائلة ستيورات حول الحق الإلهي (الشرعي) للملوك ـ على الرغم من الإطاحة برأس أبيه قبل ١١ عاماً . لكنّ ابن عمه لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، كان من طينة قاسية . وحيث أنّه كان متشوّقاً لمعرفة نوايا انكلترا خلال المباحثات التي سبقت معاهدة دوفر ، فقد أرسل بـ لويزد لاكيرول إلى لندن لتعمل كجاسوسة . وسرعان ما لمحت عين تشارلز الثاني الشرهة جمالها .

فأصبحت خلال فترة قصيرة عشيقته المقرّبة . وأصبحت فيها بعد دوقة بورتسموث . كما قيل بأنّها كانت حاملة بأحد أبنائه خلال فترة سباقات الخيل في نيوبري .

شتيبر : مبتكر النزعات الشريرة

لما كان امتداد الأراضي الحدودية للدول الأوروبيّة معرّضاً لغزوات غير متوقعة ، فقد قدّرت تلك الدول ـ أكثر من بريطانيا ـ أهمية الحاجة إلى جواسيس يعملون لصالحها . وأنفقت دول مثل فرنسا وروسيا وألمانيا أموالاً طائلة على أعمال الجاسوسية . وقدّمت كلّ دولة من تلك الدول رجال جاسوسية عظماء وقادة للجاسوسية العالميّة . فعندما تولى نابليون بونابرت الحكم في فرنسا خلفاً للملك لويس ، لم يكن لدى هذا الديكتاتور الكورسيكي الأصل حُبّاً للجاسوسية ؛ إذ قال في إحدى المرّات : «إنَّ الجاسوس خائن بالفطرة» . لكنّه أدرك فيما بعد قيمة العملاء السريين في الدفاع عن نظامه ، واستخدم أحدهم بمنتهى الفاعليّة . وصل كارل شولمستر إلى فيينا متظاهراً بأنه أحد النبلاء المطرودين من باريس لكونه جاسوساً نمساويّاً . وفي خلال أشهر معدودة ، تمَّ تعيين هذا المُخطط البارع ـ الذي وُصف بأنّه «رجلٌ له عقل وليس له قلب» ـ كرئيسٍ للإستخبارات العسكريّة النمساويّة . ثمّ جنّد اثنين من الضباط النمساويين في صَفّه ليؤكدوا تقاريره المقدّمة إلى قائد الجيش المارشال ماك ليبريتش : فألغَم بذلك دفاعات البلاد كُليَّةً . وحصدت جيوش نابليون انتصارات باهرة في معارك أولم وأوسترلايتز ، لأن شولمستر كان قد أفشى مسبقاً بالأوامر المُعطاة من قادة الجيش النمساوي .

كانت مفاجأة مرعبة للبريطانيين عندما صرّح نابليون عن عزمه على القيام بِشَنّ حرب أخرى عام ١٨٠٣ . وتردّدت خطط الغزو مع انتصارات نلسون في المعارك البحرية والتي كانت أبرزها معركة ترافالغار . وفي شهر تموز عام ١٨٠٨ حصلت بريطانيا على فرصة الإنتقام على البرّ ، لما طلبت اسبانيا العون من لندن ، بعدما فَرَض نابليون أخاه جوزيف على عرش مدريد . فأرسل وايتهول جيشاً وضعه تحت إمرة أعظم جاسوس ظهر على مرّ العصور في الحروب .

كان السير آرثرويلسلي ، الملقّب فيما بعد بدوق ويلّينغتون ، والذي هزم نابليون في معركة واترلو عام ١٨١٥ ، أعظم جاسوس عسكري ظهر على مَرّ العصور . وقد نادى بشعار : «إنَّ عمل الحرب يعتمد على اكتشاف ما تجهله بالذي تعرفه» . قام بدراسة العدو بتعمّق ، معتمداً على اكتشاف مكان تمركز الجيش المعادي ، ومدى قوَّته ، ودراسة شخصية قادته ، ومعنويات الجنود ، ونوعيّة تدريب

فصائل الجيش وخبرتها الميدانية ، وكيفيّة تزويد القوّات بالأسلحة والمؤن . كما أرسل خيّالة خبراء لرسم خريطة للطرق والأنهر وطبوغرافية المكان الذي ستدور عليه رحى الحرب ، وأراد أن يعرف فيما إذا كان باستطاعة عاصفة رعديّة تحويل مجرى نهرٍ جاف إلى سيل جارف . كما استطلعت عيونه رأي السكان المحليين بالبريطانيين .

ساعدت قوى الجاسوسيّة نابليون على حكم فرنسا والأراضي التي احتلها ، إلى أن أطاحت قوات ويلينغتون العسكريّة به فوق المنحدرات الموحلة لجبل القديس جان في واترلو . وبهزيمة فرنسا ، وتوجُّه بريطانيا إلى إنشاء امبراطورية واسعة ، أصبح الطريق خالياً أمام ألمانيا لتحقيق حلمها بسيادة الشعوب الجرمانية في أوروبا . وكان أوتوفون بيسمارك هو الحاكم الذي وحَّد الولايات الجرمانية ضمن دولة بروسيا القويّة ، لكنْ يُعتبر ويلهلم جوهان كارل إدوار شتيبر ـ المولود في مدينة ميريسبرغ عام ١٨١٨ ـ من جعل ذلك ممكناً . فبتدبيره المرسوم بدقة وبقسوته وبروده وتلاعبه المدروس بالضعف الإنساني ، كل ذلك جعل منه مهندس الجاسوسية الذي شكّل إلى حدٍّ كبير نظام الجاسوسية في القرن العشرين .

بَدأ شتيبر حياة الإحتيال كمحام في برلين . وحظي بسمعة طيبة في البداية ، لكنّه ما لبث أن خانهم ووشى بهم إلى الشرطة بعدما كَسِب ثقتهم . ويذكر في هذا الصدَّد أنّه قام بإبلاغ الشرطة عن عمّ زوجته . وأوصله هذا التعامل المزدوج فيما بعد إلى منصب مفوّض في سلك الشرطة في عام ١٨٥٠ . لكنّ هذا الإمتياز سقط عنه عندما أُعلن بعد خمس سنوات أن نصيره ، الملك فريدريك ويليام ، قد أصيب بمسٍّ من الجنون ، حيث سئم البروسيون من ادعاءاته المقززة للنفس ، والمفتقرة إلى أبسط المبادىء الانسانية ، ومن فكرة الأخذ بالثأر من النبلاء التي طرحها .

فضَّل شتيبر الهروب من البلاد . وأفاده أنّه عندما كان مفوّضاً قام بالتغطية على فضيحة ضمّت دبلوماسياً روسياً ، فذهب إلى مدينة سانت بطرسبورغ ، حيث حَظِي هناك برعاية القيصر ، ولما اعتمدت العائلة الملكية الروسيّة على البوليس السري بشكل كبير لأغراض الحماية ، طُلب من شتيبر أن يراقب أوكرانا الرهيبة . فأحكم قبضته على الشعب الروسي . وامتدّت مخالبه إلى خارج أوروبّا . فأرسل

عملاءه إلى المنشقين الإرهابيين الذين هاجروا في طلب الملجأ خارج أوروبا . وفي إحدى زياراته للندن ، قام بتفقّد اللاجئين الروسيين من أمثال كارل ماركس ثم أرسل استخبارات إلى بروسيا ، في أثناء خدمته للقيصر ، لاستعادة مكانته في بلاده .

وآتت أعمال تَودُّده ثمارها . ففي عام ١٨٦٣ ، تمّ تقديمه إلى بيسمارك على أنّه «رجل مفيد» فأُعيد إلى الخدمة في بروسيا . ولما كانت النمسا هي المحطة التالية في مخطّط توسُّع الإمبراطوريّة الألمانية ، تمَّ ارسال شتيبر لتفقد الجاهزيّة العسكريّة . فقام بالتنقّل في البلاد متنكراً بهيئة بائع متجوّل يحمل صندوقين على عربته ـ احتوى الأوّل منهما تماثيل دينيّة صغيرة ، بينما احتوى الثاني صوراً إباحية . فإذا حدث ورفض الزبون بازدراء احدى معروضاته ، فإنّه كان يسارع بقبول العرض الآخر . وبعدة عدّة أشهر عاد إلى بيسمارك بصورة دقيقة وكاملة عن قوّات النمسا . وقال في تقريره بأنّ جيشها كان ما يزال يستعمل البنادق التي تعبأ من الفوهة لا تقارن بالأسلحة الألمانية التي تعبّأ من الخلف .

عرف الجنزال هلموث فون مولتك عند ذاك بأنّ باستطاعته الهجوم بثقة . وبعد معارك دامت سبعة أسابيع ، استلسم النمساويون بعد معركة سادوا المريعة في ٣ تموز ١٨٦٦ ـ بعد أن خسروا ٤٠٠٠٠ قتيل من جانبهم ، فقدت بروسيا ٩٠٠٠ جنذي فقط .

وأصبح شتيبر في نظر بيسمارك : «ملك البوليس السرّي» . وأنشأ نظام جاسوسيّة مركزي ، اعتُبر الأكثر قسوة في العالم . كما فرض مراقبة صارمة ومنتظمة على الرسائل والبرقيّات ، وأمر بإطلاق النار على كلّ شخص اشتُبه بأنّه يتجسس على بروسيا . وبنى البيت الأخضر ـ مركز برلين للإنحراف والخطيئة ـ لابتزاز الأشخاص ذوي المنزلة الإجتماعية الرفيعة . فخلق بذلك عن عمد مناخاً من الرعب والشك .

ومع حلول عام ١٨٦٨ ، أصبح واضحاً لبيسمارك أن المعارضة الفرنسيّة كانت العقبة الوحيدة في طريق توحيد ألمانيا . فذهب شتيبر مع شريكين له إلى فرنسا ، وعاش فيها ١٨ شهراً دون أن يتم الإبلاغ عنه أو فضح أمره . فجمع معلومات كاملة عن الحقائق العسكريّة والسياسية والإقتصاديّة ؛ التي كانت مفيدة

للجيش الغازي . وكانت مصانع السلاح والجغرافية المحليّة ، وشعور الشعب نحو حكومته ، وشكاواهم من الضرائب ، أموراً مهمة بالنسبة له ـ تماماً كأهمية التقارير عن السلاح الفرنسي الآلي الجديد ، وجاهزيّة القوى المسلّحة . وعاد أخيراً إلى برلين بثلاثة صناديق مملوءة بأكثر الملفات التي جُمعت عن عدو في التاريخ ؛ في ١٩ تموز ١٨٧٠ ، قامت بروسيا بالغزو . واستسلمت فرنسا بعد ستّة أسابيع فقط . شَنَّ بعدها شتيبر حملة اغتيالات دمويّة سريّة ، اشتملت على المنشقين ؛ وحتى الذين صادف وأن نظروا خارج نوافذهم عندما مرّت جحافل القوات البروسيّة بالقرب منهم .

وعندما مات ملك البوليس السري في عام ١٨٩٢ ، قيل بأنّ الأرستقراطيين تدفقوا من جميع أنحاء أوروبّا لحضور جنازته ـ لا لينعوه ولكن ليتأكدوا من موته .

وتبنَّت المخابرات السرّيَّة لاحقاً ، كالنازيّة والروسيّة ، أساليبه القاسية وطوّروا منها أساليب لا إنسانية . لكنّ افتقاد الجاسوسية المنظمّة كان ما يزال موجوداً لدى الطبقات الأوروبيّة الحاكمة . وكانت غالبيّة الأمم تَعتبرُ التجسس «مغامرة كبيرة» ـ كما صورها روديار كيبلينغ في مجموعة قصصه المسماة «كيم» . ورغم الصدمات التي تلقّتها بريطانيا بسبب افتقارها إلى جهاز استخبارات في حرب الكريميا والتمرُّد الهندي وحروب البور في جنوب أفريقيا ، فقد تابعت الإعتماد على الهواة غريبي الأطوار للحصول على المعلومات . وكان نجاح بيسمارك في فرنسا ؛ السبب الرئيسي الذي دفع برؤساء وايتهول إلى نفض الغبار وخيوط العنكبوت عن المقر الرئيسي للإستخبارات العسكريّة في ساحة حرس الخيّالة ، حيث وجدوا إرساليات أتت من خارج البلاد قبل ٢٠ عاماً ولم يتم فتحها منذ ذلك الوقت .

اعتمد القادة العسكريّون على المغامرين الشُبّان الذين استهوتهم «رياضة» صيد القلاع . حتى أنّ ألمانيا نفسها تمرَّدت على أساليب شتيبر الوحشيّة في استخدام الجواسيس لقتل المُدانين ، بينما اعتبر أحد الحراس العسكريين البريطانيين الجاسوسية بأنّها متعة كبيرة . وأضاف قائلاً : «إنَّ مخاطر التغريم والحبس تُضفي عليها نكهةً شهيّة .» كان روبرت بادن بويل ـ الذي اكتشف فيما بعد حركة صبي الإستكشاف ـ أحد الثوّار الوطنيين الجوالين الذين جابوا في أماكن تحركات العدو الرئيسيّة متنكراً بهيئة رسام نباتات ومناظر طبيعية ، فوضع في رسوماته

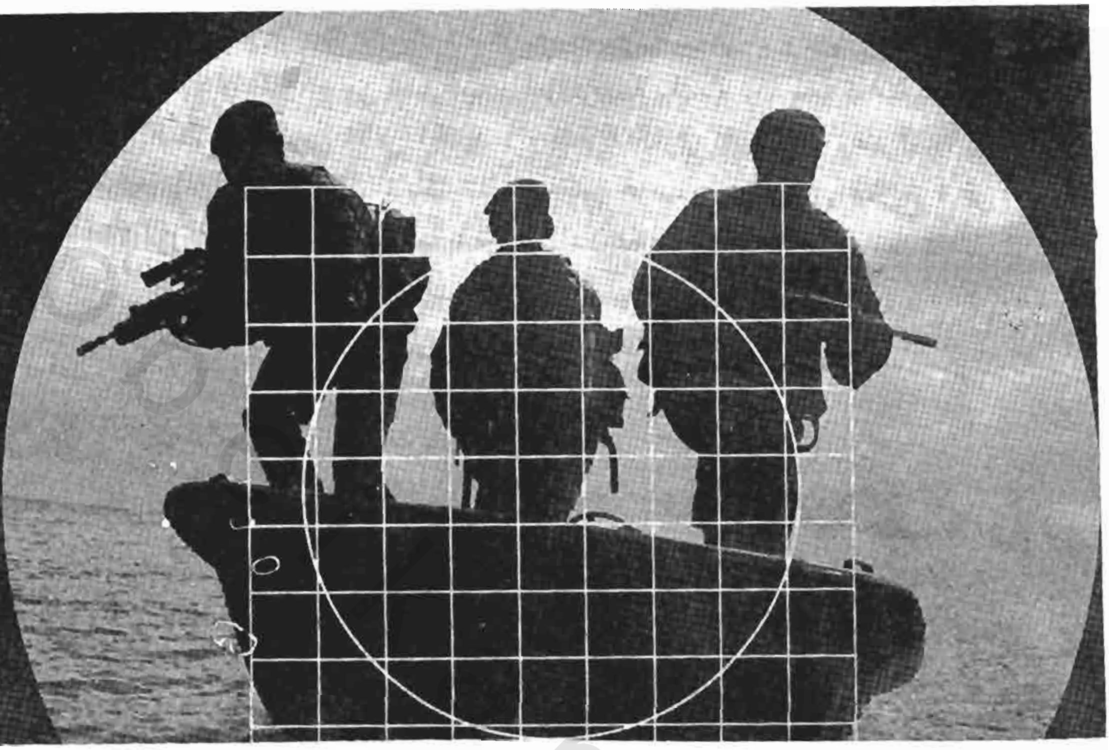

ـ تهدف الجاسوسية إلى مراقبة العدو باستمرار ومنعه من تحقيق اهدافه .

الخطوط الدفاعية بشكل أجنحة فراشة أو موانيء ساحليّة جميلة . وكانت الخطوط والنقاط في لوحاته تشير إلى عدد الأسلحة وأحجامها .

ومع طلائع بدء تجمُّع سحب العاصفة فوق أوروبا ، لاحظ وايتهول أخيراً بأنّ أسلوب الجاسوسية في الضرب والإختفاء لم يعد فَعالاً . وفي ٢٣ آب ١٩٠٩ ، وُضِعَتْ منظمة استخبارات عسكرية جديدة موضع العمل . واحتوت الـ إم أو ٥ على فيرون كيل القادم من هيئة جنوب فورد شاير العسكريّة ، وتمّ إعطاؤه مكتباً صغيراً في وزارة الحربيّة مع مساعد واحد وقيل له أن يُخفّض نفقاته إلى الحدّ الأدنى . وبالرغم من كل الصعوبات التي واجهته ، استطاع كيل بعد خمس سنوات من أن يقوم بنجاح بواحدٍ من أكبر الإنقلابات في الحرب العالميّة الأولى . . .

فيرون كيل : لعنة القيصر(١)

في أوائل عام ١٩٠٢ . بدأ العملاء الألمان بالتسلل إلى بريطانيا للإعداد للحرب العالميّة الأولى . ولم تعرهم السلطات اهتماماً كبيراً . من ثم ، ومع إنشاء الـ(إم أو ٥) ، وجدت قوى الأمن الداخلي شخصاً أخذ تحذيراتهم عن الجاسوسية محْمل الجدّ . ولاحظ فيرون كيل ـ الذي تكفّل بقوى المخابرات الألمانية بمفرده ـ أن رجال قسم السكوتلاندريارد (دائرة التحري في شرطةلندن كانوا حُلفاء فَعالين . فبدأ تعاوناً وثيقاً مع المدير باتريك كوين . وآتى هذا التعاون ثماره بعد ١٢ شهراً .

لما ذهب القيصر ويلهلم إلى لندن في عام ١٩١٠ ، لحضور جنازة الملك إداوارد السابع ، كان ضمن فريقه المرافق ضابط بحري معروف بكونه جاسوس تم اقتفاء أثره حتى دخل إلى دكّان حلاق رديء السمعة يُديره كارل غوستاف إرنست في طريق كاليدونيا . وكان هذا اختياراً غير موّفق لرجل راقٍ كان يريد فقط أن يُقصَّ شعره . وحصل كيل على إذن للسماح له بمراقبة بريد الحلّاق . فاكتشف بأنّ إرنست كان جاسوس ألماني يقوم بإرسال التقارير البريدية . وقد أُرسلت له من برلين طروداً تحتوي على رسائل شخصيّة من التعليمات المعطاة لعملاء الإستخبارات الألمانية ، والتي كان يجب إرسالها إلى لندن . بينما قام العملاء بإرسال بريدهم إلى قيادتهم عن طريق دُكان إرنست .

وقام كيل وكوين ، في هذه الأثناء ، بلعب دور الإنتظار والترقُّب . وبَقي رجال التحرّي يراقبون كل عميلٍ تم اكتشافه ، وكان من الضروري جداً عدم تنبيههم لهذه الحقيقة لأن الألمان كانَ من الممكن جداً أن يقوموا بتغييرهم ، أو إيجاد أساليب جديدة للإتصال بهم . وكان ضرورياً أيضاً ملاحقة كل عضو من أعضاء شبكة العميل . وعندما أصبح واضحاً أنَّ الأسرار الحاسمة كانت على وشك أن تُرسل إلى برلين ، قامت القوات المضادّة للجاسوسية بضربتها . وحيثما كان ممكناً ، تمَّ التلاعب بالمعلومات والتعليمات من قبل معترضي الرسائل ؛ وذلك باستخدام مزوّرين خبراء من سجن باركهورست في كثير من الأحيان . وكانت بعض الإعتقالات ضرورية ـ لأنه إذا لم تكن هناك أي اعتقالات فقد يخامر الألمان الشّك

The Kaiser

ـ القيصر على صهوة حصانه .

كانت إحدى مشاكل كيل أنّ الجاسوسية لم تكن لتؤخذ بعين الإعتبار من قِبَل القانون . فعندما أُلقي القبض على سيجفريد هيلم ، الضابط في الجيش الألماني ، بالجرم المشهود يقوم برسم مخطّطات مفصّلة لدفاعات موضع بناء السفن في بورتشماوث ، أُلْزِمَ ـ تحت طائلة العقوبة ـ بالحفاظ على الأمن ؛ وأطلق سراحه فيما بعد من قبل المحكمة . وهكذا لم يكن التجسّس يعتبر جريمة في زمن السلم .

أدار كيل حملة تغييرات في فصل الأسرار الرسميّة ، وفي عام ١٩١١ تمّ تعديلها لتغطي مجموعة المعلومات التي قد تكون ذات فائدة للعدو في زمن الحروب التي قد تنشب في المستقبل . وكان باستطاعته الآن ملاحقة جواسيس كالدكتور آرمغارد كارل غرايفس ، المسجون لمدَّة ١٨ شهراً في سجن أدنبره لتجسسه على قاعدة روسيث البحريّة وجَمْعه المعلومات عن الأسلحة من معسكرات غلاسكو . كما لاحق كُلًا من هنريك غروس ـ الذي احْتُجز في وينشستر عام ١٩١٢ بعد جَمْعه ملفّاً ضخماً عن السفن والقوّات البحريّة والمدفعيّة التي كانت متواجدة في بورتسماوث ـ وفريدريك ألفوس شرودر ، الذي حُكم عليه بالحبس لمدة ست سنوات في نيسان من عام ١٩١٤ . وباسم فريدريك غولد الذي انتحله ، استخدم الموارد الماليّة للإستخبارات الالمانية لشراء منزل الملكة شارلوت في روتشستر ؛ بالقرب من موضع بناء السفن الكائن في كاثام والمعتبر مكاناً سرّياً للغاية ، وذلك عام ١٩٠٢ . وقد أخذ كيل علماً به منذ عام ١٩١١ ، لكنّه ارتدَّ عليه فجأة عندما غادرت زوجته بالقطار متجهة إلى بروسلز ومعها معلومات غاية في الأهمية عن الأسلحة والسُّفن الحربيّة الضخمة وحقول الألغام ؛ أخفتها في حقيبتها .

حلَّت أفضل الساعات في حياة كيل ، عندما أُعلن عن قيام الحرب في ٤ آب ١٩١٤ . وقبل أن يشرق فجر اليوم التالي ، قام مع الفرع الخاص ، الذي كان يقوده في تلك الفترة السير باسيل تومسون ، باعتقال الحلاق إرنست ـ الذي كان يتقاضى جنيهـا واحداً شهريّاً من قبل الألمان ـ وجميع الـ ٢٣ جاسوساً الآخرين . وتمَّ ضرب شبكة الإستخبارات الألمانية العاملة في بريطانيا بِرُمَّتها ، وتمَّ احتجاز العملاء المشتغلين في لندن ونيوكاسل وبورو (في فيورينس) وبورتسماوث وساوثهامبتون وبرايتون وفالموث وفي ووريك . أُصيبت الجيوش الألمانيّة بالدهشة ؛ إذ وجدوا بأنَّ عليهم صدَّ هجوم القوّات البريطانيّة ، بينما كانوا يحاولون تطويق الجيش الفرنسي ـ قرب مونز ـ من الخلف . إذ أنَّ قوات الحملة البريطانية كانت قد عبرت القنال البحريَّ سِرّاً وتمركزت في الخنادق . وعلَّق الإمبراطور الألماني ، وهو يتميّز غيظاً ، على ما حدث بقوله :«هل أنا مُحاط بالاغبياء ؟ لماذا لم يُخبرني أحد بأنه ليس لدينا جواسيس في إنكلترا ؟» ولم يُحر غوستاف شتينهاور ـ الذي لَقّب نفسه سيد جواسيس القيصر ـ جواباً .

حاول الألمان تشكيل شبكة جديدة ، لكن نجاحهم كان محدوداً في هذه الناحية ؛ إذ أكمل كيل وتومسون بحذر تسعير هيستيريا الجاسوسية بمساعدة حملات الدعاية الصحافية . فتدفّقت التقارير عن الجيران المشتبه بأمرهم إلى مكاتبهم . واشْتُبه بأمر أحد الجواسيس ـ المتخفي بهيئة صحفي نرويجي ـ لأنه كان هادئاً في بيته . واكتشف رجال التحري في بيته حبراً سريّاً خبأه في زجاجة كتب عليها «سائل غرغرة» .

وصل هولنديان إلى بورتسماوث ، ودل مظهرهما على أنهما بائعي سجائر ، وكان المظهر الخادع لتقاريرهم المرسلة إلى روتردام يَدل على أنّها طلبات شراء ؛ فكانت ٥٠٠٠ كورونا مثلاً تعني أن هنالك خمسة سفن حربية على وشك الإبحار . وقد احتار مراقبي البريد من الشعبيّة المفاجئة للسجائر في هامبشاير ، فاستدعي رجال التحري على عجل . تمَّ إلقاء القبض على الجاسوسين وأعدما رمياً بالرصاص كما تجوّل عميل آخر في بريطانيا على أنّه يعزف الموسيقا ببراعة ؛ واكتشف المراقبون في النهاية رسائل مكتوبة بالحبر السري على أوراق موسيقية انكليزية كان يرسلها إلى زيوريخ .

واستفاد كيل من جاسوس لامع آخر تم اكتشافه . ما إن وصل كارل هانز لودي ـ ضابط البحريّة الألماني الذي كان يعيش في ألمانيا ـ الى اسكوتلندا على أنه سائح ألماني في أيلول من عام ١٩١٤ ، حتى قام على الفور بإرسال برقية إلى نقطة الإتصال التي يتعامل معها في السويد . وجاء في برقيّته : «آمل أن نهزم هؤلاء الألمان الملاعين في أقرب وقت ؛ كان إتصالاً يثير الريبة بين ممثلي بلدين من المفترض أن يكونوا محايدين . وتمّت ملاحقة لودي أثناء تجواله في بريطانيا . ولم يصدق الرجال المكلفين بمراقبته حظهم السعيد عندما اكتشفوا بأنّه كان يرسل إلى ألمانيا قصّة دعائية بريطانية جاء فيها بأن القوات الروسيّة كانت تهبط في اسكوتلندا لتدعم الحلفاء في الخنادق الأوروبية . وقد أُطلق فيها بعد على لودي لقب الجاسوس الذي كلَّف ألمانيا خسارة الحرب . تمَّ سحب فرقتين لمراقبة موانىء القنال بانتظار وصول القوات الروسيّة ، مُضعفين بذلك قوات القيصر الألماني في معركة ميرن الحيوية ، والتي كان بإمكان الألمان الإنتصار فيها لولا ما حدث . تمَّ بعد ذلك اعتقال لودي وإعدامه رمياً بالرصاص في برج لندن في تشرين الثاني عام ١٩١٦ .

كما راقبت الإستخبارات البريطانيّة النشاطات العشقيّة للجاسوسة ذات الطاقات الأنثوية المبالغ في وصفها ـ ماتا هاري . انتحلت غيرترود مارغريتا زيل ، المولودة في هولندا، اسم ماتا هاري (ويعني عين الصباح) عندما أصبحت راقصة إثارة في باريس . وخلال الحرب حققت ربحاً عاجلاً مقابل المتعة الجنسية التي قدمتها بمضاجعتها لشخصيات عسكرية بارزة من كلا الطرفين ، وباعت ما أخبروها به إلى العدو . كما تاجرت بجاسوسية الجنس ، ورغم ذلك ، نادراً ما كانت الأسرار التي تسربها ذات أهمية بالغة ، مع أنها تنقلت بين باريس وبرلين ومدريد . وفي عام ١٩١٦ ، رست سفينتها المتجهة إلى هولندا في مرفأ فالموث ، واقتيدت الى لندن للإستجواب . وتمّ إنذارها بأن استمرار تعاملها مع الألمان سيوقعها في المشاكل . لكنّ ماتا لم تُعِر هذا التحذير أي اهتمام . فتمَّ اعتقالها فيما بعد من قبل الفرنسيين ، وأُعدمت رمياً بالرصاص في ١٥ تشرين الأول ١٩١٧ .

استطاع جاسوس واحد أن يُفلت من ملاحظة كيل وتومسون ـ ولم يعلما عنه إلا بعدما كتب مذكراته في ألمانيا عام ١٩٢٥ . إذ استطاع جوليوس سيلبر المرور كانكليزي عائد بعد ترحاله في الهند وأمريكا وجنوب افريقيا . وقد حارب الى جانب البريطانيين في حروب البور ، الأمر الذي ساعده في الحصول على عمل في مكتب مراقبة البريد عندما عاد الى لندن عام ١٩١٤ عارضاً خدماته . وأرسل بانتظام معلومات عن الأمور التي اطلع عليها لدى قراءته ـ رسائل البريد . وأرسل بريده دون أن يتم التحقيق بأمره أو كشفه ؛ لأنه استطاع أن يطبع عليه ، مرَّ بمعرفة المراقب ، وكانت أبرز نجاحاته عندما حذَّر ألمانيا عن سفن الـ(كيو) .

كتبت فتاة بأنَّ أخاها كان متورطاً في مخطط غريب لوضع الأسلحة على سفن تجاريّة قديمة . وتمكن سيلبر ـ بصفته مراقب ـ من أن يعرج على منزلها ، ويحذّر من عمل طائش في المستقبل . وقبل مغادرته ، كان قد كشف كلّ ما أراد معرفته عن حاملات البضاعة المموّهة بشكل لا يثير الريبة لتحمي القافلات الأطلسية من هجوم البحرية الألمانية .

كانت المعلومات التي سرَّبها سيلبر ضربة بحرية نادرة لجيش القيصر الألماني . وعلى مدى غالبيّة فترات الحرب ، سيطرت الإستخبارات البحريّة بقيادة الأدميرال السير ريغنالد هول ـ المسمى «بلينكر» بسبب حالة تقلّص عصبي كانت

في إحدى عينيه ـ كُلاً من أمواج المحيط والجو . فبعد بدء الحرب بساعات فقط ، قامت إحدى السفن الحربية البريطانية بتقطيع ١٠٠ ياردة من كبل الإتصالات الرئيسي المتواجد تحت مياه البحر ، مما أجبر قوات القيصر على إرسال الرسائل بأجهزة الراديو التي كانت بدورها تُراقب في محطات التنصت على طول ساحل جنوب انكلترا . ومن ثمَّ كانت رموز تلك الرسائل تُفك في الغرفة ٤٠ من مبنى الأدميراليّة في لندن ، باستخدام كتب الرموز البحريّة المأخوذة خلال الإجتماع بالطراد (سفينة حربية) الألماني ماغد بورغ بتاريخ ٢٦ آب .

وضع هول يداه على الرمز الدبلوماسي للعدو عندما هرب ألماني ، كان مشتركاً في حرب العصابات التي كانت تُغير على القوات البريطانية في تركيا ، مُخلفاً حقائبه وراءه . ولما بدأ مُرْسل ألماني بالبث من بروسيلز ـ مستخدماً شيفرة مختلفة ـ عرفت الإستخبارات البحريّة بأن مجموعة العمل تضمَّنت رجل شيفرة بريطاني الأصل يدعى ألكسندر سزيك ـ الذي ما زال أقرباؤه يعيشون قرب كرويدون في لندن . وافق سزك على كتابة نسخة عن كتاب رموز الشيفرة بكامل أجزائه . وما أن أتمَّ العمل حتى اختفى . وما زال الغموض يحيط بما حدث له على وجه الدقة . قال البريطانيون أن الألمان اكتشفوا خيانته وأعدموه . وادَّعت المصادر الفرنسية بأن عميلاً بريطانياً قام بتهريب سزيك خارج بروسلز لمنع الألمان من أن يعرفوا بأن شيفرتهم قد كُشفت ، ثم دفعه من فوق السفينة في وسط القنال الإنكليزية ليتأكد بغرقه من بقائه صامتاً . وفي مقولة أخرى بأنّه مات في «حادث» ضرب وهروب في شارع فرعي في بروسلز . ومهما كان السبب فإن موت سزيك أثبت أن الإنكليز لم يعودوا يعتبرون الجاسوسية لعبة بعد ، إذ أصبحت اعتباراً من تلك الحادثة مسألة حياة أو موت .

ومكَّن التحكم بالشيفرة الألمانية الأدميرال السير ريغنالد هول من خداع القيصر الألماني برسائل تم تزويرها عمداً . ففي أيلول من عام ١٩١٦ ، دبَّر مع أحد عملائه تسريب شيفرة طوارىء إلى الألمان ، ثم أرسل رموزاً بأنّ السفن كانت تبحر من دوفر محمّلةً على ظهرها قوات عسكرية لغزو ساحل بلجيكا الشمالي . وليُثبت صحة المعلومات ، فقد قام بتسليم ٢٥ نسخة خاصّة من صحيفة الديلي ميل المطبوعة ـ والتي احتوت على قصة مزوّرة عن الإستعدادات في «قاعدة على

obeikandi.com

الساحل الشرقي» . ونجحت الخديعة بشكل جيد تقريباً . إذ قام القائد الأعلى للجيوش الألمانية بسحب قوات كبيرة من الخنادق وأرسلها الى الساحل . لكنّ عميلاً في مكتب الحرب ، لم يأخذ علماً بالخديعة ، حذَّر وايتهول من أنباء التحركات بهدف غزو إنكلترا . وبدأت وزارة الحربيّة بالإعداد لإخلاء الجنوب الشرقي من إنكلترا ؛ إلى أن أُحيط علماً بسرّ هول .

كان أبرز جزء لعبه هول في ربح الحرب هو التلاعب ببرقية زيمرمان . إذ مكّن دفتر رموز الشيفرة ، الذي كتبه سزيك ، الغرفة ٤٠ من فك رموز شيفرة البرقية وقراءة الرسالة التي وجهها سكرتير الدولة الألماني ـ آرثر زيمرمان ـ إلى السفير الألماني في مدينة مكسيكو في كانون الثاني ١٩١٧ ، يُحذر فيه من أن هناك هجومات غير محدودة على وشك أن تبدأ القوات البحرية بشنها على القوافل الأطلسيّة المحايدة ، ويعطي تعليماته إلى المندوب بأن ينظّم الهجومات المكسيكية على جنوب الولايات المتحدة ـ إذا دخلت أمريكا في الحرب . وتأكد هول من إيصال البرقية إلى البيت الأبيض بطريقة أثبت بها أنها ليست من اختراع البريطانيين . وتوافقت البرقية مع غرق الباخرة لوسيتانيا ، مما أجبر الولايات المتحدة على التخلّي عن سياسة العزلة التي أقرَّتها قبل ثلاثة أشهر وكانت تلك نقطة التحوّل في مصائر التحالف .

قام هول وتومسون وكيل بالكثير حتى حصلوا على النصر في نهاية المطاف في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ . وكان المحرض الرئيسي لهم هو القائد مانسفيلد كيومنغ ، أول رئيس لقسم الإستخبارات الخاصّة ، المسماة فيها بعد (إم اي٦) ، والتي وجدت في عام ١٩١٢ لأغراض الجاسوسيّة الهجوميّة في الخارج . وقام أحد عملائه بتنبيه استخبارات هول إلى إمكانية استخدام الكسندر سزيك للحصول على شيفرة القيصر ـ كان اسمه : سيدني ريلي . . .

ريلي المتهوّر: جاسوس من الطراز الأول.

لم يظهر في التاريخ شخص أكثر غموضاً من سيدني ريلي. إذ غلّف الغموض حياته منذ مولده وحتى وفاته. لكنّ ما حققه لم يكن موضع تساؤل؛ بدون شكٍ فانّه كان عميلاً قاسياً وزير النساء غير الشفوق - والذي وضعت أعماله الجريئة؛ مغامرات العميل السري ٠٠٧ جيمس بوند الخياليّة في الظل. وقد قال إيان فليمينغ - مخترع شخصية بوند - في إحدى المقابلات: «إنَّ ٠٠٧ هو خيال لا معنى له حلمت به، وهو - كما تعلمون جيداً - لم يكن سيدني ريلي».

على الرغم من أنَّه حَمَل فيما بعد جواز سفر تضمن أن مكان ولادته هو تيبيراري في إيرلندا، فمن المحتمل جدّاً أن ريلي قد وُلد في جنوب روسيا، قرب أوديسا، بتاريخ ٢٤ آذار ١٨٧٤. وقيل بأنّهُ - عندما كان في التاسعة عشرة من عمره - اكتشف بأنّ الكولونيل في الجيش الروسي والمتزوج من والدته لم يكن أباه، إذ تمّ خداع الوالد أثناء عملها مع طبيب من فيينا - وكان اسمه الحقيقي سيغموند جورجفيتش روسنبلوم. ولما عرف بأنّه يهودي، جعلت الصدمة الصبي يهرب من روسيا المعادية للساميّة، فغادر روسيا على ظهر قارب بريطاني هارباً باتجاه جنوب أمريكا، حيث عَمِل كجمّال ومُصَلّح للطرق وعامل زراعي. وحسب روايته فقد تم تجنيده أيضاً كطباخ مع بعثة بريطانيّة توغّلت في مجاهل الأمازون - وعندما هاجمهم السكان المحليون، أرعبهم صوت الرصاص الحاد الذي أطلقه ريلي.

ولما أُعجب الميجور فورثغيل، قائد الحزب، بشجاعته وإتقانه لعدّة لغات بما فيها الروسيّة والألمانيّة، أعطاه ١٥٠٠ جنيهاً وعرض عليه وظيفة مراسل سرّي. في البداية، عمل ريلي لحسابه الخاص.

أخذ اسم ريلي من زوجته الأولى. كانت مارغريت ريلي توماس في الثالثة والعشرين من عمرها - جذّابة وحيوية - عندما التقاها الجاسوس في أوروبا. وكانت تقوم بالسياحة مع زوجها هوغ الصارم والعصبي، والذي كان يعمل كوزير للمعارضة من ويلز. كان ثريّاً ويبلغ الستين من العمر. وكما قالت مارغريت لريلي، فقد كان ساديّاً يضربها بوحشية. وبدأ ريلي ينزل في الفنادق قريباً من غرفهم. وقد انسلّت مارغريت في مرات عديدة إلى سريره بشكل سِرّي بينما كان زوجها نائماً تحت تأثير جرعات ضخمة من اللودانيوم كانت تتزايد حسبما يعطيها له

Sidney Reilly

ـ سيدني ريلي : جاسوس من الطراز الأول .

ريلي ـ الذي مثل دور خبير طبي . وعندما مرض توماس المتديّن مرضاً خطيراً في منزله بلندن ، اقترح عليه ريلي أن يقوم برحلة ليبعده عن أعين الجيران . وفي الطريق إلى المناطق الاستوائية مات توماس في أوروبا في مدينة نيوهيفن . ورثت مارغريت ٨٠٠٠ جنيه . وبعد خمسة أشهر أصبحت أول زوجة لريلي ـ لكنها لم تكن الأخيرة ؛ كما أنَّ توماس لم يكن آخر رجل يغتاله ريلي .

ومع حلول القرن العشرين ،كان في هولندا متنكراً على هيئة ألماني يَتَفحَّصُ المساعدات الهولنديّة إلى حروب البور في جنوب أفريقيا ، كان لدى ريلي قدرة غامضة على رؤية بؤر التوتر في العالم والتدخل فيها منذ البداية . إذ لاحظ مثلاً أهميّة اكتشافات الزيوت البترولية في الشرق الأوسط ، وحذَّر من أن بريطانيا كانت على وشك أن تفقد هذه الفرصة الخطيرة . فذهب إلى إيران حيث اكتشف أنّ الشاه قد منح حقوق التطوير والإستثمار إلى شخص استرالي يدعى ويليام دارسي ؛ الذي كان يناقش الخلفية المالية مع الثري روثتشايلدز في مدينة كان الفرنسية . فما كان من ريلي إلا أن تنكَّر بزي راهب واقتحم بلا خجل يخت العائلة في المرفأ الفرنسي ؛ ليجمع شيكات إحسان . وبينما كان المضيفين يكتبونها له ، سحب دارسي جانباً ووعدَه بأن الحكومة البريطانية ستعطيه عرضاً ماليّاً أكبر من ذاك الذي سيقوم به روثتشايلدز . وفي أيار عام ١٩٠٥ ، تمَّ إعطاء مبلغ ٩٠٠٠٠٠ جنيه لدارسي عن أسهمه في الشركة التي شُكلت للاستفادة من الفرصة التي انتهزها ريلي .

وفي عام ١٩١٤ عاد إلى أوروبا ليبدأ سلسلة من المهمات التي تعتبر مستحيلة التصديق ، مما أدى إلى منحه وسام الصليب العسكري البريطاني . وقبل أن تندلع الحرب في عام ١٩١٤ بقليل ، أمَّن عملاً لدى معمل الأسلحة الضخم (كروب) في إسين ، بالاتفاق مع كارل هاهن . حيث تطوّع لليلة عمل إضافي ، واستطاع الوصول إلى أدراج مكاتب التصاميم السريّة للغاية ليتفحّص كل التفاصيل عن برنامج إنتاج الأسلحة . وعندما افتُضح أمره ، قتل اثنين من الحراس حتى استطاع الهرب .

وعندما عاد إلى روسيا ، ظهر في المجتمع على أنَّه رجل أعمال ثري . ونظم أسبوع الطيران في مدينة سانت بطرسبورغ ، فاطلع الزوار الألمان على أسرار تطور

الطيران والطائرات . عندئذ لاحق الجاسوس غير العادي بنائي سلاح البحرية بلوهم وفوس لجعله وكيلاً لأعمالهم في شؤون التصدير إلى روسيا . وحصل بذلك على عمولات ضخمة كرجل مبيعات . وكان ناجحاً جداً لدرجة أن البريطانيين في سانت بطرسبورغ تذمروا إلى سفيرهم بأنه كان يسلبهم طلبات الشراء المقدمة من الشركات البريطانية . أصبح ريلي ثريّاً ، واستلمت لندن صوراً فوتوغرافية عن تصاميم الأسلحة ومواصفات أحدث السفن الحربيّة التي كانت متواجدة لدى قوات القيصر الألماني .

بدأت إدارة الخدمات السريّة البريطانية بالحصول على معلومات لا قيمة لها من ريلي ، وكان عليها أن تقبله على علّاته . وعرف رؤساء الجاسوس ، أو اشتبهوا ، بأنّه كان يبيع الإستخبارات التي كان يرسلها اليهم الى قوى أخرى - خصوصاً روسيا وفيما بعد فرنسا . ولم تكن لديهم حيلة لمنعه من مخاطراته الجريئة ، ومن هنا جاء لقبه ريلي المتهور. وكان عليهم أيضاً أن يغضوا الطرف عن تعداد زواجه عندما رفضت مارغريت عرضاً مغرياً للطلاق . فأجبرها ريلي على مغادرة سانت بطرسبورغ ليتزوّج من الكونتيسة ماسينو- الزوجة السابقة لوزير حكومة روسي .

وفي عام ١٩١٧ عاد ريلي إلى لندن . وبالرغم من أنّه تجاوز الأربعين في حينها فقد تطوّع لإبداع نوع جديد من الجاسوسيّة باستخدام القفز المظلي خلف خطوط العدو لجمع المعلومات . فتمَّ انزاله قرب مدينة مانهايم ومعه أوراق مزورة تقول بأنّه قد تمّ تسريحه من الجيش الألماني . وفي خلال ثلاثة أسابيع جَمَعَ معلومات عن المخططات الهجومية للألمان ؛ والتي كان من المقرر تنفيذها في عام ١٩١٨ . وقد تمَّ صدّ الهجوم الذي كان من الممكن أن يُكسب الحرب . وتنكَّر ريلي بعد ذلك بزيّ ضابط ألماني ، وأمضى عدة أيام في كوينغسبرغ ، شرقي بروسيا ، جامعاً آخر إشاعات الحرب . وكانت أعظم مآثره حضوره المؤتمر الذي عقده القائد الأعلى وحضرهُ القيصر شخصياً .

تمكّن ريلي بطريقة ما من أن يصبح سائقاً لضابط في فرقة أمير بافاريا ، روبريخت . وبينما هم في طريقهم إلى اجتماع أركان الحرب ، زعم الجاسوس البريطاني أنّ عطلاً أصاب المحرّك ، ورفع غطاء محرّك السيارة المعدني لفحصه .

وعندما فقد الضابط صبره نزل ليعاونه في الإصلاح . وفي ظلمة طريق الغابة الموحش ، قتله ريلي بهدوء بضربة أنزلها على رأسه ، ثم ارتدى زيّه العسكري ، وتابع طريقه إلى الاجتماع . واعتذر ببرود عن وصوله متأخّراً إذ قال أن سائقه قد مَرِض . ثم جلس يأخذ الملاحظات عن جميع خطط المعركة المستقبلية ، فاستطاع بذلك تحذير وزارة الدفاع البريطانيّة من الهجوم البحري لتعطيل خط الإمدادات الأطلسي . ووجد قادة القوارب من نوع الـ(يو) أهدافهم محميَّة مِن قِبل سفن ضخمة تحمل أسلحة ثقيلة .

وفي نيسان ١٩١٨ ، عاد ريلي إلى روسيا حيث وقعت الثورة في العام السابق . وبدا معقولاً أن يعقدوا اتفاق سلام مع الألمان ؛ بعدما قاموا بتحرير كامل قوات القيصر الألماني لهجوم على الجبهة الغربيّة . فقام رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج بالموافقة على الإطاحة بالشيوعيين . كما كان مقرراً ، لمنع المعاهدة الدَوليّة ـ وكان ريلي الرجل الوحيد الذي باستطاعته القيام بذلك . وباستخدام جواز مرور من الإستخبارات السوفيتية الجديدة ـ التشيكا ـ قام ريلي بنشر وحدات منظمة . وجَمَع أكثر من مليوني روبل من الروس البيض المتعاطفين . واستخدم أيضاً ١٢٠٠٠٠ جنيهاً من أموال الحكومة البريطانيّة لرشوة شخصيّات ذات نفوذ وسلطة .

كانت الخطة الغربية تقضي بأن يتمَّ خطف القادة السوفييت لينين وتروتسكي ، وعرضهم بعد ذلك في الشوارع بملابسهم الداخلية ، ليصبحوا موضع سُخرية . حتى أنَّ ريلي انتقى حكومة بديلة ونصَّب نفسه رئيساً للوزراء فيها . وعلى غير ما كان متوقعاً فقد تأجَّل الاجتماع الذي كان من المقرر عقده واحتجاز القادة فيه . وحاولت دورا كابلان ، المعادية للبلاشفة ، قَتل لينين . لكنّه نجا رغم إصابته بطلقتين من مسدسها . بعد تلك الحادثة قامت قوات التشيكا بشنّ حملة تطهير وحشيّة . وتمّ تطويق معظم شركاء ريلي .

كان ريلي في القنصلية البريطانية في سانت بطرسبورغ عندما اقتحمتها قوات التشيكا ، وقام ضابط بحريّة شجاع يدعى كرومي بإعاقتهم في بهو المبنى مستخدماً مسدسيه حتى قُتل ؛ لكنَّ تأخيره لهم أعطى ريلي وقتاً كافياً للهروب من النافذة . وبالرغم من أنّ البلشفيين وضعوا جائزة مقدارها ١٠٠٠٠٠ روبل لمن

يأتي برأسه ، فقد تمكّن ريلي من البقاء حيّاً شهرين كاملين ، متنكراً إما بزي فلاح روسي أو مسافر يوناني أو بائع تركي قبل أن يصل في النهاية سالماً إلى خارج البلاد بعد أن فرَّ هارباً على ظهر سفينة تجاريّة هولندية .

في لندن ، طلق ريلي زوجته نادين وتزوّج من الممثلة بابيتا باباريلاّ بشكل غير شرعي أيضاً . وبقيت الهواجس تنتابه حول الحاجة لقلب النظام الروسي ، فبدأ العمل مع بوريس سافينكوف ـ الذي كان ثوريّاً فيما مضى ، ثم أصبح واحدا من أبغض أعداء لينين في المنفى . وتآمر الرجلان لدى ظهور (التِرْست) ؛ التي قيل بأنّها منظمة من الروس ذوي النفوذ والسلطة ، تشكلّت لقلب نظام حكم لينين وإعادة الحكومة السابقة . ذهب سافينكوف لموسكو ليتقصى أخبار المتمردين ، وبعد عام من ذهابه ـ أي في عام ١٩٢٥ ـ لَحِقَ به ريلي . ومنذ ذلك الوقت لم يشاهد في الغرب ثانية على الإطلاق .

اعْتُقد في البداية أنّه قد قُتل وهو يحاول عبور الحدود الفنلندية باتجاه روسيا . ووضعت زوجته الجديدة ملحوظة وفاة في الصحف ، تقول فيها أنّ القوات الروسية اغتالته قرب أليكول في ٢٨ أيلول ـ لكنها تعتقد بأنه كان ما يزال حيّا . وكان هذا النعيُ محاولة لاجبار السلطات البريطانية أو الروسيّة على التصريح عن الحقيقة . لكنَّ كلا الطرفين التزما جانب الصمت . وعلى مدى السنوات الخمس التالية قال اللاجئون المهجرون من الإتحاد السوفيتي بأنهم رؤوا ريلي داخل مستشفى سجن بوليرسكي . وقال البعض بأنه قد فقد عقله من جرَّاء التعذيب . ومن ثم بدأت أخبار مشؤومة أخرى بالظهور ، فادَّعى فنلندي بأنّ الجاسوس عَرَف بأنَّ (الترست) كانت مخططاً سوفيتيا للإيقاع بأعداء الدولة في قبضة التشيكا ، لكنّه كان يأمل أن «يُعيد» تنظيم البلشفيّة إذا لم يستطع هزيمتها .

وخلال الحرب العالميّة الثانية ، تذرع السوفييتي وولتر كريفيتسكي بمعلومات ادعى بأنّها من ريلي ؛ ساعدت الإستخبارات الروسية على اختراق وكالة الإستخبارات ووزارة الخارجية في بريطانيا . وقال كريفتسكي : «اعتقد بأنّه بإعطائنا معلومات قليلة سيساعد بريطانيا ويُساعد نفسه ، لكنه في النهاية لم يُساعد لا بريطانيا ولا نفسه» . وفي عام ١٩٦٦ ذكرت صحيفة روسيّة أن ريلي بعدما اعتُقل ، عرض عليهم أن يخبرهم كلّ ما يعرفه عن شبكة الإستخبارات البريطانية

والأمريكية . وفي عام ١٩٧٢ ، ادَّعت صحيفة باريسية أن ريلي كان عميلاً سوفييتياً طوال الوقت .

إن ملفات الـ«ك جي بي» هي الوحيدة التي استطاعت فك رموز آخر لغز أحاط بريلي . فقد عُرض مسلسل تلفزيوني عن حياته في بريطانيا عام ١٩٨٣ . ووصف فيه بأنه جاسوس من الطراز الأول . لم يَحْظ أي جاسوس في العالم على ما حصل عليه ريلي بتهوّره ، رغم أنَّ المراقبة في كل دولة كانت فعالة أكثر منها اليوم . كان أسطورة خلال حياته ـ يعتبر الميراث الذي خلّفه رهيباً ومُخرباً . إذ كان ما ادّعاه كريفيسكي والآخرون صحيحاً ، بأنَّه أخبر الروس ، إما تطوّعاً أو تحت التعذيب ، فكيف استطاع التسلل إلى المؤسسات البريطانيّة . لقد وضع سيدني ريلي أُسس إطار الجاسوسية العام والجاسوس الذي يعرف كيف يستغل مواهبه . . .

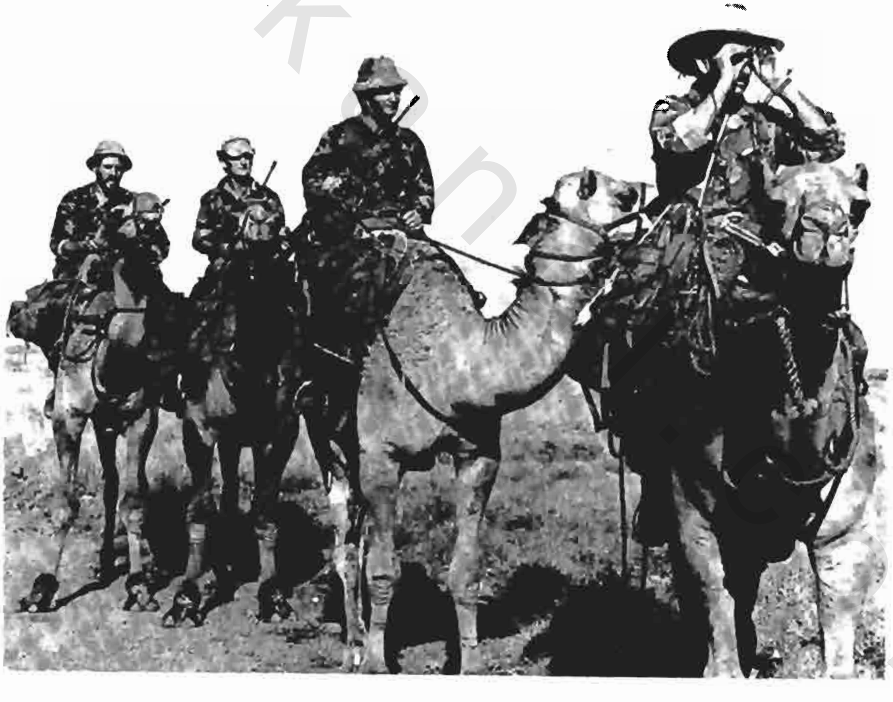

ـ قوات الاستطلاع تراقب تحركات العدو في الصحراء .